الفصل الأول

- القدس وأورشليم ومسميات أخرى
- وصفها الجغرافى وتطورها التاريخى
- دولة داود ١٠١٣ - ٩٧٢ ق.م
- دولة سليمان ٩٧١ - ٩٣١ ق.م
- القدس بعد دخول الإسلام
- القـدس كـمـا رآها ابن بطوطة فى منتـصـف القرن الثامن الهجرى

القدس وأورشليم(*)

اسمان لمسمى واحد كتب لهما البقاء وربما اختفت أسماء أخرى عرفت بها هذه المدينة والآن نتساءل: هل نشأ الاسمان فى عصر واحد؟ وهل يتفقان فى مدلولهما؟ الواقع غير هذا، فاللفظان يختلفان اختلافا كبيرا فأولهما أعنى «القدس» سامى أصيل ظهر مع الأسرة السامية وسايرها فى مختلف عصورها وحضاراتها وعقائدها. أما اللفظ الآخر أعنى أورشليم فلا يمت إلى الأسرة السامية بصلة. وأول صلة البشرية به ترجع إلى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد. وفى الرسائل المصرية القديمة المعروفة باسم رسائل تل العمارنة وصيغته الأولى «أورشليم».

ويرجح أن لفظ «أورشليم» حيثى الأصل واستعاره الإسرائيليون واستخدموه فى نصوص العهد القديم إلى جانب «القدس» وغيرها من الأسماء السامية الأصيلة، إلا أن النصوص الإسرائيلية لم تلتزم صيغة بعينها، فبينما هى مثلا «أورشليم» فى أسفار مثل يشوع(١) وصموئيل الثانى(٢) والقضاة(٣) إذ بنا نجدها فى نصوص الملك

(*) فلسطين العربية – د. فؤاد حسنين.

(١) الإصحاح ١٠ آية ١ والإصحاح ١٥ آية ٦٣.

(٢) صموئيل الثانى الإصحاح ٥ آية ٦.

(٣) القضاة الإصحاح ١ آية ٧.

الأشورى «سنحريب» (٧٠٥-٦٨١ ق.م) فى صيغة «أورساليمو، وهو لفظ يتفق مع صيغة «يروسلم» وفى الترجمة السبعينية نجد «يرسلمو» Ierousalmu .

وفى عصر الاسكندر المقدونى بياء بين اللام والميم، فقد أوجده علماء العهد القديم فى القرن السادس والسابع الميلاديين، ولا ندرى العوامل التى دفعت اليهود إلى إيجاد هذا النطق للكلمة ولاسيما فالمدينة كانت تعرف قبل الفتح الإسرائيلى باسم «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين سكانها وحكامها[١].

وشأن مدينة القدس شأن غيرها من المدن تحاك حول قيامها الأساطير ففى سفر أخبار الأيام الثانى نقرأ أن سبب قيامها فى موضعها أن إبراهيم أراد تقديم إسحاق قربانا هناك وفى ذلك الموضع. لذلك نجدها مقترنة بالجبل الذى شيد عليه فيما بعد المعبد، وربطت الأسطورة بين هذه الرواية وبين ما جاء فى سفر التكوين، حيث نجدها وثيقة الصلة بفكرة تقديس القدس بينما فى موضع آخر من سفر التكوين وفى عصر إبراهيم نجد القدس تمهد لتقديس الإله الأكبر كما أوجدت الكهنوت والكهنة.

القدس العربية

وبعد هذا التعريف الموجز بأورشليم إلى القدس العربية مع

(١) اليبوسيين هم فرع من الكنعانيين العرب الذين سكنوا فلسطين منذ الألف الرابع قبل الميلاد.

الحرص الشديد على استخدام لفظ «العربية» كى لا يتبادر إلى ذهن القارئ أن صلة العرب بالقدس تبدأ بالإسلام والواقع غير هذا لذلك يهمنا أن نتتبع التاريخ العربى فى شبه الجزيرة العربية عامة وفى إقليم فلسطين خاصة.

إن صلة العرب بفلسطين قديمة جدا كما تحدثنا المصادر التاريخية، ففى العهد القديم أو كتاب اليهود المقدس نقرأ كثيرا من النصوص التى تشير إلى الوجود العربى فى شمال الجزيرة العربية وبخاصة فى فلسطين. وأولئك العرب الذين فرضوا أنفسهم على كل الجزيرة فأصبح اسمهم علما على الجزيرة ولغاتها وأهلها، فلفظ «عرب» كما عرفه المتقدمون من أبناء هذه اللغة عبارة عن كل واد غير ذى زرع، ففى معاجمنا اللغوية نجد لفظ «تعرب» مستخدما للتعبير عن الإقامة بالبادية ومن هنا كان لفظ «عرب» يفيد الجفاف والصحراء، أما سائر المعانى الأخرى التى تطور إليها اللفظ منذ ظهور الإسلام فلا نجد لها ندا جاهليا[1].

جغرافية القدس: جبالها ووديانها

١ - جبل الزيتون[2]

وهو المواجه لأسوار الحرم من الجهة الشرقية، يفصله عنه واد عميق سريع الانحدار هو وادى قدرون وامتدادهما من الجنوب إلى

(١) المرجع السابق

(٢) القدس - د. حسن ظاظا.

الشمال. وهو من الوجهة التاريخية من أهم الجبال المحيطة بالقدس، والتلمود يسميه جبل المسح أى جبل التتويج، لأنهم يأخذون من زيتونه الزيت المقدس الذى يستعمل فى تتويج ملوكهم، وعليه كانت تحرق بقرة القربان الحمراء «فى التلمود، وهى فى القرآن «صفراء فاقع لونها»، وكانوا يستخدمون الرماد المتخلف عن إحراقها فى تطهير الهيكل وإعادة تكريسه إذا دنس، وهى عادة وثنية منتشرة فى هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية، وفى أسفل هذا توجد حديقة المعصرة «جتسمانى» التى اكتسبت ذكريات قدسية لدى المسيحيين من صلاة يسوع عندها وهو فى النزع الأخير. وفى أعلاه مغارة ألقى فيها المسيح بعض تعاليمه، والتقى بحوارييه قبل صعوده إلى السماء، وعليه بكى المسيح على أورشليم، وحياه المؤمنون به بالأغصان الخضراء يوم أحد السعف الذى يتقدم الفصح، والعرب يسمونه اليوم «جبل الطور».

٢ - جبل بطن الهوا (١)

وهو امتداد جبل الزيتون فى الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس يفصله عنها وادى سلوان الذى يتصل فى هذه النقطة نفسها بوادى قدرون.

ويسميه اليهود «هارهامشحيت» أى «الجبل الفاضح»، ويزعمون أن سليمان أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأجنبيات،

(١) المصدر السابق.

وأنه هو المقصود من سفر الملوك الأول ١١ / ١- ٨ : «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون.

٣ - جبل صيهون (١)

فى الجنوب الغربى للقدس القديمة، وكانت عليه قلعة اليبوسيين التى انتزعها داود منهم بالحرب، ثم نقل إليها قاعدة حكمه التى كانت حتى السنة الثامنة لتوليه فى جبل «جرزيم» بالقرب من نابلس شمالا، وسماه منذ هذا الوقت «مدينة داود». وكان يفصل جبل صهيون قديما عن هضبة القدس جبل أقل ارتفاعا يمتد منحنيا على شكل هلال إلى الشمال الشرقى من صهيون، وكان يمر بين الجبلين واد ضيق كان يسمى حسب قول المؤرخ اليهودى يوسفوس «من القرن الأول الميلادى» «وادى الجبانة التيروبويون» أى صانعى الجبنة، وكان يمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى حيث يتصل بوادى سلوان، الذى يتصل بدوره بوادى قدرون شرقا. وهذا الجبل الصغير لم يرد له اسم خاص فى الكتاب المقدس، ولكن فى عهد الملك اليونانى السلوقى انطوخوس الرابع «أبيفانوس» الذى حكم الشام من ١٧٥ إلى ١٦٤ ق.م.

ثار اليهود على حكمه فحضر وقمع ثورتهم وبنى على هذا الجبل الصغير المواجه للقدس من الغرب قلعة سماها «أكرا» ومن ثم أصبح هذا الجبل يسمى:

(١) المصدر السابق.

٤ - جبل أكرا

٥ - جبل موريا (١)

أو جبل بيت المقدس، أو بالاختصار «الحرم» حيث المسجد الأقصى المبارك، وقد ورد اسم «موريا» فى التوراة «التكوين ٢٢ / ٢» فى قصة الذبيح الذى أمر الله إبراهيم أن يقدمه قربانا وحدد له هذا الموضع ليذبح فيه ابنه إسحاق والموضع مايزال حتى الآن محل خلاف كبير فى هذه القضية بين الباحثين وبين اليهود أنفسهم، فاليهود السامرة يرون يأن الحادثة كانت على جبل جززيم القريب من نابلس، حيث قام أقدم هيكل لبنى إسرائيل وهو الذى جاء داود فأبطله وعطله بعد أن نقل عاصمته إلى القدس، أما طوائف اليهود الأخرى فتزعم أن وقفة إبراهيم بابنه كانت على هذا الجبل بالقدس، وعلى الصخرة الشريفة بالذات(٢).

٦ - جبل رأس المشارف «سكوبوس»

ويسميه التلمود «جبل المراقبين» (هارهاصوفيم) وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقى إلى الشمال، يفصل بينهما منخفض يسمى «عقبة الصوان».

٧ - ويبدو أنه كان فى قديم الزمان جبل يقوم بين جبل سكوبوالس

(١) المصدر السابق.

(٢) هذه احدى أساطير اليهود.

وبين هضبة الحرم «جبل موريا» ذكره يوسفوس فى كتابه «حرب اليهود – الجزء الأول – الباب الخامس» وسماه «بيزيتا» أى «بيت الزيتون» أو «منبت الزيتون». ولما تولى «أجريبا الأول»(٤١–٤٤ ميلادية) وهو من أسرة هيرودس التى اهتمت كثيرا بتجميل القدس كما سترى، ردم ما بين «جبل موريا» وجبل «بنريتا» ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير بحيث أصبح حيا من أحياء القدس كان يسمى «المدينة الجديدة».

وعلى ذكر هذا الردم بين جبلين فقد حدث فى القدس نفسها قبل ذلك فى حكم الأمير اليهودى المكابى شمعون من أسرة الحشمونيين التى كانت تحكم فلسطين حكما دينيا من قبل اليونان، نقول فى هذا الوقت «سنة ١٤٠ ق.م» قام شمعون بردم ما بين تل «أكرا» حيث قلعة انطوخيوس السلوقى وبين جبل الحرم «موريا» بحيث صارا شيئا واحدا أيضا.

وهكذا إذا أخرجنا جبل الزيتون وامتدادا جنوبا وشمالا، لانفصاله التام عن القدس بالمنخفضات والوديان الشرقية والجنوبية والجنوبية الشرقية وأخذنا فى الاعتبار أن جبل الحرم «موريا» أصبح يضم جبل «بيزيتا» من الشمال الغربى، وجبل «أكرا» من الجنوب الشرقى، أمكننا أن نقول إن المدينة كانت تقوم بهذا الشكل على مرتفعين اثنين هما هضبة الحرم، وقبالتها فى الجنوب الشرقى «جبل

صهيون» يفصل بينهما جزء من وادى الجبانة فى الجنوب «تيروبوبون»، و،هذا ما لاحظه المؤرخ اللاتينى تاسيت فى كتابه «الجزء الخامس».

ويذكر يوسفوس أيضا أنه كانت هناك قنطرة تربط هضبة الحرم «جبل موريا» بالزاوية الشمالية الشرقية لجبل صهيون حيث كان يوجد كورنيش يقال له باليونانية «كسيستوس» وهذا العمل يرجع أيضا إلى أمراء الحشمونيين الذين حكموا باسم اليونان فى فلسطين، فهم الذين ردموا جزءاً من الوادى وبنوا قنطرة قائمة على عقود مقوسة توصل من «مدينة داود» على جبل صهيون إلى «الحرم» على جبل موريا وهو الطريق الذى يمتد الآن من الحرم إلى باب السلسلة.

ولا نستطيع وقد أوضحنا مواقع جبال القدس وما طرأ عليها إلا أن نشير إلى المنخفضات أو الوديان الفاصلة بينها مجتمعة بعد أن سبقت الإشارة لبعضها فى مواقعها(١).

١ - وادى قدرون شرقا:

وهو اسم جدول الماء الذى يجرى فى قاعه عندما يسقط المطر، وقد اشتهر باسم «وادى يهوشافاط» «سفر يوئيل ٣/٢،١٢» وطوله نحو كيلو مترين يفصل السور الشرقى للقدس عن جبل الزيتون، ويعتقد كثير من الطوائف المسيحية واليهودية أن الحشر يوم القيامة

(١) القدس. د. حسن ظاظا.

سيكون فى هذا الوادى اعتمادا على قول النبى يوئيل: «أجمل كل الأمم وانزلهم إلى وادى يهوشافاط وأحاكمهم هناك»، وفى الموضع الثانى الذى أشرنا إليه بقول النبى يوئيل: «تنهض الأمم وتصعد إلى وادى يهوشافاط لأنى هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية».

٢ - وادى سلوان جنوبًا:

وهو اسم النبع الموجود فى هذا الوادى، والذى ينساب منه مجرى ماء اسمه جيحون، أما الوادى نفسه فكان يحمل قبل مجىء العبريين اسم قبيلة «هنم» بتشديد النون، فكان يقال «وادى هنم» أو «وادى بنى هنم» وكلمة الوادى كانت فى لغات سامية قديمة متعددة هى كلمة «جى»، فكان يقال «جيهنم» أى هذا الوادى نفسه، وكانت هذه القبيلة، فى الوثنية البعيدة فى القدم، تقدم الضحايا البشرية إلى الهها «مولك» بذبحها وإلقائها فى النار، ومن هذه الصورة أطلق اسم «جهنم» على مكان العذاب فى الآخرة للشبه القائم بينهما. ووادى «هنم» أو «سلوان» أو «جيحون» هذا يمتد على طول جنوبى القدس حتى الطرف الجنوبى الشرقى من جبل صهيون. وسمى هذا الوادى بين العرب «حقل الدماء».

٣ - وادى الجبانة أو «التيروبيون»

يفصل جبل صهيون عن غرب القدس ويبدأ حيث ينتهى وادى سلوان وكان يسمى فى الجزء الجنوبى الغربى من القدس «وادى

الزبالة » أو « وادى الدمن » أو « وادى القمامات »، وقد أشرنا إلى ردم جزء منه فى أعمال توسيع لجبل صهيون وللحرم المقدس الواقع على جبل « موريا » الذى هو هضبة الحرم الشريف .

٤ - وادى الأرواح

« رفائيم » بالعبرية، أو العفاريت، يدور حول غرب جبل صهيون وأقصى الجنوب، وبه مدافن للموتى .

وفى سنة ١٥١٦م انتهى حكم المماليك عندما سقطت القدس فى يد الجيش التركى فى عهد السلطان سليم الأول العثمانى ومن بعدها مصر أيضا وبعد ذلك مباشرة كان السلطان سليمان القانونى العثمانى ١٥٢٠ - ١٥٦٦ هو الذى يحكم الامبراطورية الإسلامية الشاسعة وقد أمر بإعادة بناء أسوار القدس الشريف على النحو الذى نعرفه الآن .

وبهذا السور الحالى سبعة أبواب[١] :

١ - باب الخليل غربا، وهو الذى يسمونه أيضا باب يافا، وكان يسمى قديما باب إبراهيم .

٢ - باب النبى داود جنوبا، واسمه باب صهيون، وهو على جبل صهيون ملاصق لقبور ملوك آل داود .

٣ - باب المغاربة جنوبا من منخفض الجبانة « التيروبويون » ويسمى

(١) المرجع السابق .

أيضا الباب الصغير لصغر حجمه نسبيا، ومن الأثريين من يزعم أنه باب القمامة القديم، والراجح أن باب القمامة كان إلى الجنوب أكثر، فى أسفل الجبل ومن هذا الباب تخرج جنازات الموتى لتدفن على جبل الزيتون.

٤ – باب السباع شرقا، والعرب يسمونه باب ساباط والظاهر أن الكلمة تحريف يهوشافاط واليهود كانوا يسمونه قديما باب «يهوشا فاط» لأنه يطل على الوادى المسمى بهذا الاسم.

٥ – باب الزاهرة، شمالا، وهو باب هيرودس، وربما كان فى موضع «باب ساحة الجيش» القديم.

٦ – باب العمود، فى الشمال الغربى، ويسمونه باب دمشق، واليهود تسميه باب شكيم «نابلس».

٧ – الباب الحديد، غربى باب العمود، ويسمى باب عبدالحميد وهو أقرب الأبواب إلى كنيسة القيامة.

هذا عدا أبوبا وبوابات داخل القدس نفسها مثل «باب حطة» الذى يصل إليه الداخل إلى القدس من باب الزاهرة، وباب السلسلة القريب من المسجد الأقصى.

وبعد، فهذه جولة فى تاريخ القدس تتبعنا فيها اليهود خاصة، فوجدنا أن المدينة كانت مقدسة قبل داود بألف سنة، من أيام الملك الفلسطينى ملك بصدق، لدرجة أن سيدنا إبراهيم التمس منه الطعام والشراب، وأن يباركه ببركة الله العلى، ووجدنا أن فترة أواخر

حكم داود وحكم سليمان[١]، وهى لا تعدو كلها ثلاثا وسبعين سنة: ٣٣ لداود و٤٠ لسليمان هى الفترة الوحيدة التى كانت المدينة والهيكل فيها مركزا وعاصمة لليهود بقوة السلاح أولا وبالمسالمة والدبلوماسية ثانيا، ووجدنا أنه بمجرد موت سليمان تقلصت سلطة القدس بأكثر من النصف، إذ كانت دولة إسرائيل فى الشمال لا تعترف لا بداود ولا بسليمان ولا بخلفائها، لا فى الدين ولا فى السياسة، حتى جاء الآشوريون والبابليون ووضعوا حدا لكل هذا ومنذ ذاك الوقت كانت أورشليم رمزا، ولم يكن وجود اليهود فيها وجودا مستقلا لا سياسا ولا اقتصاديا ولا دوليا، وإنما كانت لهم فيها زوايا ومعابد لطقوسهم، وكان يأتى إليها حجاجهم كما يذهب المصرى أو المغربى أو التركى للحج فى مكة المكرمة.

ووجدنا أن العرب عندما دخلوا القدس الشريف بعد الإسلام كانت المدينة خالية من اليهود منذ خمسمائة سنة أو أكثر ومن كل أثر سياسى أو دينى لهم إلا «مسمار جحا» الذى هو حائط المبكى[٢]، وعلى مدى أكثر من ثلاثة عشر قرنا، كانت تحت الإدارة الإسلامية «مدينة الله» بحق يجد فيها المسلم والمسيحى واليهودى صفاء النفس والسكينة الروحانية اللازمة للتأمل والعبادة.

---

(١) قيام مملكة داود وسليمان وتفاصيلها فى الفصل التالى.

(٢) «من حائط المبكى» الذى بناه هم الرومان وليس اليهود.

ألف سنة قبل داود، وألف وخمسمائة سنة بعد داود، والقدس مدينة الله، بل داود نفسه لم يكن يسميها إلا مدينة الله، واليهود يعرفون ذلك جيدا، ويعرفون أن التلمود كان يعتبرها «مدينة مملوكة لله» ولذلك حرمت شريعته أن يمتلك فيها الإنسان بيتا أو أرضا أو بستانا، أو أن يسكن أحدا فى بيته بأجر، ولكنهم عند اللزوم كثيرا ما يسكتون جميع الأصوات حتى صوت داود وسليمان وأصوات الأنبياء، وحتى صوت التلمود.

مملكة داود (١٠١٢ - ٩٧٢) ق.م(*)

كان داود وهو شاب ناشئ يحضر المعارك مع شاؤل، وبدأ حكمه بعده والفلسطينيون ذوو السيادة على البلاد. وفى عهده عرف الإسرائيليون صناعة الحديد، ثم استولوا على بلاد آدوم وهى غنية بالحديد، فتوافرت لديهم الصناعة والمادة فاستطاعوا أن يخرجوا آلات حربية منوعة، على أن سلطان الفلسطينيين كان قد ضعف، وبذا تهيأ لداود الانتصار عليهم، وجاء فى القرآن الكريم إشارة إلى تقدم صناعة الحديد فى قول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ** ﴾ [سبأ: ١١]، وانتصر داود أيضا على الملك الآرامى -حتى وعزر- واستولى على مناجم النحاس فى أوضه فتوافرت له مواد صالحة، واستفاد سليمان بكل ذلك من بعده وجاء فى القرآن الكريم عن سليمان: ﴿ **وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ** ﴾ [سبأ: ١٣].

ولا ينبغى أن يجرد شاءول من كل فضل فقد مهد لنجاح داود

(*) اليهود واليهودية - د. عبدالجليل شلبى.

بما أقام بين الإسرائيليين من وحدة جمعت قبائلهم، وكان بينه وبين داود عداء ولكن رجال الذين كانوا -كما سبق بجانب داود وقد حقق الآمال فيه ووثق داود وحدة القبائل الإسرائيلية المتنافرة لأنه هو الذى قتل جليات « جالوت »[١] فبث هيبته فى نفوس الناس وخضعوا له.

وتبدو له أيضا مقدرة سياسية فقد ضم إلى حاشيته يوناثان بن شاءول رغم العداء المرير الذى كان بينه وبين شاءول وآله، ولكن يوناثان هذا كان يحب داود، ولما عزم أبوه على اغتياله ذهب هو فاختير داود ونهى أباه عن تنفيذ قتله[٢].

وعمدة داود فى نجاحه السياسى والحربى هو نزعته الدينية، فهى التى جمعت حوله بنى إسرائيل وأنجحته فى القضاء على آلهة الأمم الوثنية المجاورة فأزالها من مملكته وأخلص العبادة فيها ليهوه وحده، ثم أحرز انتصارات عديدة على أعدائه زادت فى رخاء شعبه، ووسع حدود مملكته فشملت ما بين أراضى فينيقيا غربا والصحراء العربية شرقا، وامتدت إلى رأس خليج العقبة، وهذا أقصى ما وصلت إليه دولة إسرائيل، وكان هذا التوسع على حساب الكنعانيين، كأكبر مجموعة معاصرة لداود، وعلى حساب الفلسطينيين الذين كانوا يملكون الشريط الخصب على ساحل

(١) أحيط قتله بأسطورة أنه رماه بحجر فمات ويعزى إلى داود وسليمان أساطير كثيرة.

(٢) صموئيل الأول ١٩ / ١-٨.

البحر المتوسط، وكان اليبوسيون إلى الشمال من مملكة داود قد اتخذوا من بيت المقدس « أورشليم، عاصمة لهم، عاصمة مقدسة بها معبدهم أو أكبر معابدهم، فأزاحهم داود وجعلها عاصمة ملكه وبنى بها لأول مرة فى تاريخ الإسرائيليين معبدا لهم، وكانوا قبل ذلك يجمعون فى خيمة، يحضرون بها عهد الله لموسى والتابوت الذى يعتبرون حضوره ممثلا لحضور يهوه، وفى هذا المعبد حفظ التابوت والخيمة وما تبقى من ألواح موسى ». وابتهج الإسرائيليون بالعاصمة والمعبد، وكان موقع أورشليم مما جذب الأسباط وبلور حولها عاطفتهم الدينية ووحدتهم الوطنية وقوى تماسكهم.

وكان حول داود عدد من المستشارين الدينيين من القسس واللاويين وقد أدخل على نظام العبادة بمعاونة مستشاريه شيئا جديدا، ذلك أنه جعل لها مقدمة موسيقية تؤديها مجموعة مدربة، وبها ينشط الحاضرون ويثور حماسهم للعبادة. وأضاف إلى الأناشيد الدينية أناشيد حماسية من تأليفه، أطلق عليها غ اسم المزامير وهى من الأناشيد المقدسة وقد توسع فيها الذين جاءوا بعده إذ أضافوا إليها كثيرا، وهى مجموعة الآن فى سفر المزامير، وبعضها منقول بنصه من تسابيح اخناتون التى كان يتوسل بها إلى الشمس(١).

(١) انظر فجر الضمير لبريستد، وفيه مقابلات بين النصين.

كان من مستشارى داود بعض من آل شاءول وكان مستشاروه يراجعونه ويردونه بعنف فى بعض المواقف، وهذا مدى ما بلغته ديمقراطيته.

وينسب الكتاب المقدس إليه أشياء سيئة، وتدل مقدسات اليهود أن الترانيم والأوثان لم تنقطع من بينهم رغم ما بذله داود من جهد لإخلاص العبادة ليهوه.

مملكة سليمان (٩٧١ - ٩٣١) ق.م(*)

ورث سليمان داود، وكانت توليته الملك ميسرة لما بذله أبوه من جهود فى إنهاض الدولة، ولم يتكلف مشقات حربية كأبيه، وقد حكم نحو أربعين عاما.. ولكنه أجهد الدولة بنفقات كثيرة حتى إنها فى نهاية مدته كانت على شفا الإفلاس، وليس من السهل أن يوفق الباحث بين ما جاء عنه فى المقدسات من حكمه وما وصفه به التاريخ من تبذير وخرق. وتقول التوراة أيضا إنه سمح بعبادة الآلهة الأخرى، وهذا ما لا يقبله المسلمون وإن قبله مؤرخو اليهود فهو عند المسلمين نبى معصوم بينما هو عند اليهود ملك فقط.

بنى سليمان فى أورشليم معبدا أو هيكلا فخما صار هو المعبد الرئيسى وألغى ما عداه من المعابد، وكان بناة هذا المعبد من الفينيقيين، مما يدل على أن الدولة كانت لا تزال متخلفة، فلم يكن بين الإسرائيليين مصممون ولا بناءون، وقد استكثر فى هذا المعبد من أعمدة الأرز الفينيقى حتى سمى بيت الأرز وغابة الأرز، وبنى لنفسه قصرا على نسق المعبد، وتزوج بنت أحد الفراعنة وقدم مهرا لها قلعة، وكانت مصر فى حالة ركود، وكان زواج إسرائيلى من الفراعنة شرفا لم تحلم به إسرائيل من قبل، على أن الإسرائيليين يبغضون التزوج من غير اليهود.

(*) المصدر السابق.

واتجه سليمان إلى التجارة فعقد صلات مع حيرام الصورى، وهو الذى أشرف على بناء المعبد وكان له أسطول فى البحرين الأبيض والأحمر إذ كان على صلة بالسبئيين، وجاء فى القرآن الكريم ذكر صلته بملكة سبأ -بلقيس- وأنها بسببه تركت عبادة الشمس وعبدت الله الخالق، وجلب إلى إسرائيل كثيرا من ثروات الأمم الأخرى وثقافتهم، وقرب بين إسرائيل وبين الدولة المجاورة، وبذا فتح أبوابها لتقليدهم وعبادة آلهتهم وطقوسهم فكان فى هذا على عكس ما عمل أبوه.. وكانت نفقاته أكثر من وارداته فأرهق الشعب بالضرائب، وأفقر الدولة، ووصف معبده فى سفر الملوك يوضح هذا الإجهاد.

ويذكر سفر الملوك أنه أسرف فى الزواج من الأميرات الأجنبيات، وبنى لهن معابد وثنية[1] مما زعزع عبادة يهوه حتى صار مجرد إله قومى، ولا يمنع ذلك عبادة الإسرائيليين غيره، ولا نستطيع أن نصدق ما جاء عنه فى التوراة من أنه كان زوجا لسبعمائة، وله ثلثمائة جارية، وأن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب كقلب أبيه داود.

ولم يكن اتصاله بالأمم الأخرى شرا كله، فإن الإسرائيليين نتيجة

(١) انظر سفر الملوك الأول ص٦ / ص٧ كانت أرض المعبد من خشب السرو، وغشيت جدرانه بأخشاب منقوشة بتماثيل فاكهة وخضر ونخيل وبراعم زهور، وغشى المحراب بالذهب وتوج أعمدة بيته بالنحاس وقام له بكل ذلك حيرام، وهو ابن امرأة من نفتالة وأبوه كان نحاسا فنانا ذا حكمة وفن رائع.

اتصالهم بالفينيقيين تركوا الخط المسمارى والكتابة على الفخار واستعملوا الورق والمداد وحروف الهجاء الفينيقية.

وفى هذا العهد كتب أول تاريخ لبنى إسرائيل كتبه مؤرخ مجهول ضمنه تاريخ آبائهم بدءاً من إبراهيم(١) ثم أضيف إليه بدع ذلك تاريخ بدء الخليقة. ولا يحسن أن ننسى طبيعة الشعب الإسرائيلى المتعلقة بالوثنية، وقد أخذوا عن المصريين عبادة الأبقار، وهى عبادة كانت معروفة لدى الأمم الزراعية، ورأيناهم عقب عبورهم البحر من مصر ينتهزون غياب موسى فيصنعون لهم عجلا من الذهب ليعبدوه، والتوراة تعزو هذا إلى هارون، وبعض الملوك الإسرائيليين صنعوا تماثيل للأبقار وحفظوها فى بيوتهم.. ورغم عظات الأنبياء ونهيهم عن عبادة الأوثان ظل الشعب الإسرائيلى يميل إلى الوثنية فليس اتصالهم بالأمم الأخرى هو السبب الوحيد فى تركهم يهوه واتخاذهم آلهة أخرى معه، وقد وصفت التوراة يعقوب بأنه كان له أوثان.

وفى عهد سليمان شاع السحر واشتدت العناية بالأرواح والجن، وجاء ذكر ذلك فى القرآن أيضا(٢)، كذلك كثر استيراد الذهب ونسجت حول الأشياء كلها أساطير وقصص.

وعلى أى حال انكسرت فى عهده وحدة الدولة ووحدة الدين،

(١) نفسه ص١١/ ٢١-٢٥. وكان له مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات، وحثيات من الأمم التى نهى الله عن الزواج منها.

(٢) التاريخ القديم ص٦٩.

والدولة أساسا قامت على وحدة الدين، فانكسرت وحدتها بانكساره.

قسم سليمان دولته إلى اثنى عشر قسما رغبة فى ضم شملهم وربطهم جميعا بسلالة يعقوب، وكانت قبيلتا يهوذا وبنيامين فى الجنوب فكان اختلاطهما بالأمم الأخرى والتأثر بعاداتها قليلا، فثبتتا على عبادة يهوه بينما مالت الأسباط الأخرى فى الشمال إلى آلهة الأمم التى جاورتها، ولم تكن الوحدة التى تجمع كل هذه الأسباط قوية، بل كانت شخصية الحاكم هى الجامع لهم كما كان الحال فى عهد يوشع وداود إذ خفيت ظواهر التفكك فى أيامهما ولكنها نجحت فى عهد سليمان بسبب تذمر الشعب من أعماله وعداء رجال الدين له، وكان قد عزل الكاهن ابيتارا وقتل يؤاب رئيس جيشه. وأخاه الأكبر دوينا (١) وذلك ما نفر منه، وأظهر الانشقاق عليه.

وهناك اسمان متشابهان هما يربعام ورحبعام، والأول من سبط إفرايم، وأمه كانت أرملة تدعى «صروعة» وكان من خصوم سليمان الذى أنكروا عليه أعماله وعارضوه وقد توعده سليمان ففر إلى مصر وبقى بها حتى مات سليمان فرجع.

(١) الملوك الأول ٢/ ١٢، وانظر عن تقسيم المملكة ص١١-١٢.

والثانى: وهو رحبعام - كان ابن سليمان وولى عهده فخلفه واتجه إليه يربعام هو وجع من الإسرائيليين راجين أن يخفف عنهم أثقال أبيه، فخيب رجاءهم وقال: أبى ثقلَ نيركم وأنا ازيدكم عليه، هو أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب(١)، ولهذا رفضت عشر قبائل أن تعترف به ملكا، وهى القبائل التى فى الشمال، فاختاروا يربعام ملكا عليهم وكونوا مملكة إسرائيل فى الشمال واتخذوا شكيم عاصمة لهم، ثم بنوا السامرة وجعلوها عاصمتهم، أما سبطا يهوذا وبنيامين فبقوا على ولائهم لرحبعام وكونوا مملكة يهوذا فى الجنوب، وبقيت أورشليم عاصمة لهم، وبذا صارت الدولة الواحدة دولتين متنافستين، بل كانتا عدوتين فى كثير من الأحيان.

(١) أخبار الأيام الثانى ١٠ / ١٤.

الرحالة بن بطوطة
فى رحلاته إلى بلاد الشام(*)

زار ابن بطوطة القدس فى منتصف القرن الرابع الميلادى بعد نزوح الصليبيين عنها بنصف قرن، يصور لنا ابن بطوطة المدينة المقدسة منذ ستمائة وخمسين عاما فيقول:

ثم وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله ثالثا للمسجدين الشريفين فى رتبة الفضل، ومصعد رسول الله ﷺ تسليما، ومعرجه إلى السماء والبلدة كبيرة منيفة بالصخر المنحوت، وكان الملك الصلاح الفاضل صلاح الدين بن أيوب، جزاه الله عن الإسلام خيرا، لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها، ثم استنفض الملك الظاهر هدمه خوفا من أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها، ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء فى هذا العهد الأمير سيف الدين تنكيز أمير دمشق.

المسجد الأقصى

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن، يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، وأن طوله من شرق إلى غرب

(*) ابن بطوطة: هو أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن إبراهيم الطنجى نسبة إلى مدينة طنجة المغربية التى ولد فيها عام ٧٠٣ هـ - ١٣٠٤ م.

سبعمائة واثنان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا، وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاثة وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا بابا واحدا، وهو الذى يدخل منه الإمام، والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا المسجد الأقصى، فهو مسقف فى النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة، وفى المسجد مواضع سواه مسقفة.

قبة الصخرة

وهى من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلا، قد توفر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف، وهى قائمة على نشز فى وسط المسجد، يصعد إليها فى درج رخام، ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة، وكذلك داخلها، وفى ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف، وأكثر ذلك مغشى بالذهب، فهى تتلألأ نورا وتلمع لمعان

* بدأت الحروب الصليبية عام ١٠٩٦ ميلادية، فاقاموا مملكة القدس الصليبية، وانتهت عمليا عام ١١٨٧ ميلادية فى معركة حطين والتى قضى فيها صلاح الدين على قوة الصليبيين واسترد بيت المقدس.
ولكن فلول الصليبيين فى الشام وما جاءها من إمدادات ثم قواتها التى غزت مصر مرتين أطالت امد الحرب مائة عام أخرى إلى أن نزحوا عن الشرق نهائيا عام ١٢٩١م.

البرق، يحار بصر متاملها فى محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها.

وفى وسط القبة الصخرة الكريمة التى جاء ذكرها فى الآثار، فإن النبى ﷺ عرج منها إلى السماء، وهى صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل إليها على درج، وهنالك شكل محراب، وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها، أحدهما، وهو الذى يلى الصخرة من حديد بديع الصنعة والثانى من خشب وفى القبة درقة كبيرة من الحديد معلقة هنالك، والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبدالمطلب.

بعض المشاهد المباركة فى القدس الشريف

فمنها بعدوة الوادى المعروف بوادى جهنم فى شرقى البلد على تل مرتفع هنالك بنية يقال إنها مصعد عيسى، عليه السلام، إلى السماء ومنها أيضا قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة.

وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى، ويقولون: إن قبر مريم عليها السلام بها، وهنالك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى، وهى التى يكذبون عليها، ويعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها، وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة

للمسلمين، وضروب من الإهانة يتحملها على رغم أنفه، وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به.

فضلاء القدس

فمنهم قاضية العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى، وهو من أهل غزة وكبرائها، ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى، ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى، ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبوعبدالله محمد بن مثبت الغرناطى نزيل القدس، ومنهم الشيخ الزاهد أبوعلى حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين، ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغى، ومنهم الشيخ الصالح العابد أبوعبدالرحيم عبدالرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى، صحبته ولبست منه خرقة التصوف.

ماذا يعنى تاريخ اليهود فى القدس؟!

يتضح مما سبق أن التاريخ اليهودى المزعوم فى مدينة القدس وفى عهد نبى الله داود وابنه سليمان عليهما السلام لا يعدو سبعين عاما أو تزيد قليلاً وهذا ما سجلته المصادر التاريخية الصحيحة.

أما تاريخ العرب والذى يمتد آلاف السنين قبل دخول الإسلام عام ١٥ هجرية على يد عمر بن الخطاب ثم الهجمة الصليبية التى شوهت قدسية هذا البلد العربى العريق فلم تمتد أكثر من قرنين من الزمان حفلت بحروب تحريرها إلى أن تم على يد صلاح الدين الأيوبى عام ١١٨٧ ميلادية، طردهم إلى غير رجعة من البلاد.

لقد أردت إبراز هذه الحقبة التاريخية القصيرة، هى تاريخ اليهود بأكمله فى مدينة القدس العريقة، والتى سبقت ميلاد المسيح بألف عام.. وحتى هذه المدة القصيرة فلم تكن إلا فترة زمنية قصيرة متداخلة أيضا فى نطاق عروبة القدس التى سبقت مملكة داود نفسه بآلاف السنين وحتى اليوم كما سيجىء تفصيل ذلك فى فصول الكتاب التالية.